﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 181 - 182]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

علاقة التّشنيع بالبخل، بوصف اللـه بالفقر، وتوعّدهم بعذاب الحريق

لَمَّا سطَّرَ بيانُ اللهِ في الآيةِ السّابقةِ، عاقبةَ الَّذين يبخلونَ بإنفاقِ المالِ في سبيلِ اللهِ، وأنّ اللهَ مالكُ السَّماواتِ والأرضِ، شَنَّعَ اللهُ على اليهودِ مقالَتَهم الفاجرةَ الكافرة، وكذلكَ قَتْلَهمْ لأنبيائِهم ظُلمًا وعُدوانًا، وتوعَّدَهُمْ على ذلكَ بعذابِ الجَحيم، وهذا كلُّه بسببِ ما قدَّمَتْه أنفُسُهمُ الظَّالمةُ، وأنَّ اللهَ لا يَظلمُ أحدًا من عبيدِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَكْتُبُ﴾: الكَتْبُ: في التَّعارفِ: ضَمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخَطِّ، وقد يُقالُ ذلكَ للمَضمومِ بعضِها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة: النَّظْمُ بالخطِّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخَر؛ والكتابُ في الأصلِ مصدرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتوبُ فيه كتابًا، ويُعبَّرُ عنِ الإثْباتِ، والتَّقديرِ، والإيجابِ، والفَرْضِ، والعَزْمِ بالكتابة، كما يُعبَّرُ بالكتابةِ عن القضاءِ المُمْضى، وما يصيرُ في حُكمِ المُمْضى، وعلى هذا حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزُّخرف: 80]، ويُعبَّرُ بالكتابِ عنِ الحُجّةِ الثَّابتةِ من جهةِ اللهِ؛ نحوُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحجّ: 8][1]، وهذا المعنَى هو المناسبُ لمقامِ الفعلِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ في الآيةِ الكريمة، ممّا يؤكّد سُمُوَّ البيانِ في سياقاتِ القرآن.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 699 - 700.

2) ﴿ذُوقُواْ﴾: ذاق الطَّعامَ: اختبر طعمَه، بوضعه على طرف لسانه، ليختبر مذاقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، والذَّوْقُ: وجودُ الطَّعْم بالفَم، وأَصْلُه فيما يَقِلُّ تناولُه دون ما يكثُرُ، فإنَّ ما يَكثُرُ منه يُقالُ له: الأكلُ، واخْتيرَ في القرآن لفظُ الذَّوْقِ في العذاب؛ لأنَّ ذلك ـــ وإنْ كانَ في التَّعارُفِ للقليل ـــ فهو مرتضًى للكثير، فخصَّه بالذِّكرِ ليَعُمَّ الأمريْن، وكَثُرَ استعمالُه في العذاب، كقولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 35]. وقد جاءَ ذكرُ الذَّوقِ في الرَّحمة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾ [هود: 9]، ويُستعملُ الذَّوْقُ مع اللِّباس، كما في قولِه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [النَّحل: 112] من أجلِ أنَّه أُريدَ به التَّجربةُ والاختبار؛ أي: فجعلَها بحيثُ تُمارِسُ الجُوعَ والخَوْفَ[1].

3) ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: النَّارُ، وحَرْقُ الشَّيءِ: إيْقاعُ حرارةٍ في الشَّيْءِ من غير لهيبٍ، كحرقِ الثَّوْبِ بالدَّقِّ، وحَرَقَ الشَّيْءَ: إذا بَرَدَه بالْمِبْرَد، وعنه اسْتُعيرَ: حَرْقُ النَّاب، وماءٌ حُرَاقٌ: يَحرِقُ بملُوحَتِه، والإحْراقُ: إيقاعُ نارٍ ذاتِ لهيبٍ في الشَّيء، ومنه اسْتُعيرَ: أَحْرَقَني بلَوْمِه: إذا بالغَ في أذيَّتِه بلَوْم[2]، وللفظ (حرق) أَصْلَانِ: " أَحَدُهُمَا حَكُّ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، مَعَ حَرَارَةٍ وَالْتِهَابٍ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ، وَالْآخَرُ شَيْءٌ مِنَ الْبَدَنِ، هو الْحَارِقَةُ، وَهِيَ الْعَصَبُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْوَرِكِ، والْأَوَّلُ هو الّذي يهمّنا هنا، وذلك في قَوْلهم حَرَقْتُ الشَّيْءَ، إِذَا حَكَكْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: (هُوَ يَحْرُقُ عَلَيْكَ الْأُرَّمَ غَيْظًا)، وَذَلِكَ إِذَا حَكَّ أَسْنَانَهُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَالْأُرَّمُ هِيَ الْأَسْنَانُ، قَالَ:

نُبِّئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى إِنَّمَا *** بَاتُوا غِضَابًا يَحْرُقُونَ الْأُرَّمَا"[3].

4) ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾: من الظُّلم، وهو عندَ أهلِ اللُّغةِ: وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ المختصِّ به[4]، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادَة، وإمَّا بعُدُولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلمُ ثلاثةُ أنواعٍ: الأوّلُ: ظُلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللّهِ تعالى، والثّاني: ظلمٌ بينَه وبينَ النَّاس، والثّالثُ: ظُلمٌ بينَه وبينَ

(1) الراغب، المفردات، ص: 332 - 333.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 229، والفيروزآبادي، القاموس: (حَرَقَ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَرَقَ).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 537، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 144.

نَفْسِه، وكُلّها ظُلمٌ للنَّفس، ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النّحل: 33][1].

5) ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾: العُبوديّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعبد: الإنسان حرًّا أو رقيقًا، ويقال: هو عبد اللّه، ويجمع على عباد وعبدين، والعبد: المملوك، وجمعه: عبيد[2]، ولهذا اللّفظ صلة بلفظ العبادة، وهي فعلُ المكلَّف على خلافِ هوَى نَفْسِه، تَعظيمًا لربِّه[3]، وجَمْعُ العَبْدِ الَّذي هو مُسْترَقٌّ: عَبيدٌ، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابِدُ: عِبَادٌ، فالعبيدُ إذا أُضيفَ إلى اللّه أعمُّ مِنَ العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، فَنَبَّه بيانُ اللّهِ تعالى، أنَّه لا يَظلِمُ مَنْ يختصُّ بِعبادتِه، والوعيد في الآية، لِمَن انْتسبَ إلى غيرِه، مِنَ الَّذين تَسَمُّواْ بِعَبْدِ الشَّمس، وعَبْد اللَّات[4]، وعبدوها من دون اللّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّشنيع على أباطيل الأقاويل، وتوعّد المبطلين بعذاب الحريق

يُخبر بيانُ اللّهِ تعالى عن أقبح مقالةٍ وأشْنعها على اللّه تعالى، وأنَّه ﷻ قدْ سمعَ ما قالوه، وسيكتبُه ويحفظُه مع أفعالهم الظَّالمة، ومنها قتلُ الأنبياءِ النَّاصحينَ لهم، وأنَّه سَيُعاقبهُم على ذلك أشدَّ العُقُوبة، ويُقابلُ قولهَم الفاجِرَ ذاكَ بقولِه لهم: ذُوقُوا العذابَ المُحرقَ لِأجسادِكم؛ وسببُ عاقبتِهمُ المُخزيةِ تلكَ ما قدَّمتْه أنفُسُهمُ الفاجِرة، وأنَّ اللّه لا يظلمُ أحدًا مِنْ عبيدِه؛ بلْ همُ الظَّالمون[5]، وفي الآية ردٌّ صريح عليهم، ومجابهة قويّة تكشف عن كذبهم الصّراح، وتظهر ما أبدوه من التوائهم وإصرارهم على الكفر، ووصف اللّه بما لا يليق بجلاله وكماله.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 537 - 538.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 537 - 538.
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 146.
(4) الراغب، المفردات، ص: 542 - 543.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 119.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾.

أفادَ الاستئنافِ، مناسبة ذكرِ البُخْل؛ لأنَّهم قالُوه في مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرغيب في الصَّدقات

قولُه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ جملةٌ اسْتئنافيّةٌ لمناسبةِ ذكرِ البُخْل؛ لأنَّهم قالُوه في مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرغيب في الصَّدقات، والَّذين قالوا ذلكَ هُمُ اليهودُ، كما هو صريحُ آخرِ الآيةِ في قوله: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾، وجاءتْ صيغةُ الجمعِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع أنَّ القائلَ واحدٌ لِرضا الباقينَ بذلك[1].

بلاغة الإيجاز في الآية:

علّة الاستغناء بالمذكور؛ لدلالة الكلام عليه

في الآية الكريمة إيجازٌ بالحذف؛ "إذ إنَّ السّياق تضمّن حذف كلمات دلّ فيها ما ظهر على ما طوي، إذ المعنى: سنكتب ما قالوا وما فعلوا ونُلْقيهم في جهنم وبئس المصير، ونخاطبهم وهم يَصْلون نارها بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار الملتهبة وآلامها، وذلك مثواهم"[2].

فائدة الافتتاح بالقسم:

علّة القَسَم؛ المبالغةُ في التَّهديد والوَعيد لليهود

وقولُه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، وهو يُؤذِنُ بأنَّ هذا القولَ جراءةٌ عظيمةٌ، وإنْ كانَ القصدُ منها التَّعريضُ ببُطلانِ كلامِ القرآن؛ لأنَّهم أتَوْا بهاتِهِ العبارةِ بدونِ محاشاةٍ، ولأنَّ الاسْتخفافَ بالرَّسولِ ﷺ وقرآنِهِ إثمٌ عظيمٌ وكُفْرٌ على كُفر، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ﴾ المستعمَلُ في لازمِ معناه، وهو التَّهديدُ على كلامٍ فاحش، إذْ قد علمَ أهلُ الشَّرائعِ أنَّ اللهَ يعلمُ خائنةَ الأَعْيُن، وما تُخفي الصُّدور، فليس المقصودُ إعلامَهم بأنَّ اللهَ علمَ ذلك؛ بلْ لازِمُه، وهو مقتضَى قولِه: سنكتُبُ ما قالُوا[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/183.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/183 - 184.

علّة التعبير بلفظ السّمع:

إيـثـارُ لـفـظ السّـمـع إيـذانٌ بشناعة القول غير المـرضي أنْ يُسمع

وجاءَ التّعبيرُ بالسَّماعِ في قولِه: ﴿سَمِعَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّه مِنَ الشَّناعةِ والسَّماجةِ، بحيثُ لا يرضَى قائلُه بأنْ يسمعَه سامعٌ.

دلالة التوكيد بـ ﴿لَقَدْ﴾:

جاء التَّوكيدُ القَسَميُّ في قولِه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ والمبالغةِ في الوعيد[1].

سرّ التّعبير عن القائلين بالاسم الموصول:

الـتـعـبـيـر بالموصول؛ لبيان أنّهم لا يُعرفون إلا بهذه المقولات والافتراءات

عبَّر عن القائلين في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ بالاسم الموصول وجملة صلة الموصول التّي ذكرت مقولتهم دون أن يبيّن من هم على وجه التّحديد، مع أنّ السّياق يبيّنهم على وجه الخصوص، وذلك لبيان أنّه ليس لهم ما يُعرفون به سوى هذه المقولات والافتراءات التي يفترونها على الله.

بلاغة توكيد المقولة:

وجـه تـوكـيـد المـقـولـة؛ الإيـهـامُ بتحقّق مضمونها

وأكّدوا مقولتهم بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة تضليلًا للمُخاطبين وإيهامًا لهم بأنّ الأمر مُحقّق لا مرية فيه.

فائدة واو الحال:

أظـهـرت واو الحال وقاحتهم في الخطاب مع الله تعالى

وجاؤوا بواو الحال على معنى: هو فقير وحالنا أنّنا أغنياء، فلا حاجة لنا إذن به، وهذا يدلّ على شناعة وقاحتهم مع الله.

دلالة السّين في فعل الكتابة:

السِّينُ في ﴿سَنَكْتُبُ﴾؛ لتأكيدِ التَّشنيعِ على اليهودِ بمقالتِهمُ الفَاجِرة؛ أيْ: سنكتُبُ ما قالوه مِن العظيمةِ الشَّنعاء في صحائفِ الحَفَظة، أو سنحفظُه ونُثبتُه في عِلْمنا لا نَنْساهُ ولا نُهمِلُه، أي: لن يفوتنا أبداً تدوينُه وإثباتُه؛ لكونه في غاية العِظم والهولِ؛ كيف لا وهو

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612.

كفرٌ باللّه تعالى واستهزاءٌ بالقرآن العظيم والرسولِ الكريم؟![1]، فالمرادُ بالكتابةِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ إمّا كتابته في صحائفِ آثامِهم، إذْ لا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ أن يُكتَبَ في صحائفِ الحَسَنات، وهذا بعيد؛ لأنَّ وجودَ علامةِ الاسْتقبالِ يُؤذِنُ بأنَّ الكتابةَ أمرٌ يحصُلُ فيما بعدُ[2].

دلّت السّين على تأخر أمر الكتابة؛ وأكّدت التّشنيعِ على اليهودِ

توجيه القراءات القرآنيّة في كلٍّ من ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ و﴿وَنَقُولُ﴾:

هناك قراءتان في كلٍّ من ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ و﴿وَنَقُولُ﴾[3]:

وجه قراءة البناء للمفعول أنّ فاعلَ الكتابةِ معلوم، وهو اللهُ تعالَى

قُرِئَ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ﴾ بنون العَظَمة منْ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وبنصبِ اللَّام منْ ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ على أنَّه مفعولُ (نكتُبُ) و﴿وَنَقُولُ﴾ بنونٍ، وقُرِيءَ: (سَيُكتبُ) - بياءِ الغائبِ مَضْمومة، وفَتْحِ المثنَّاةِ الفوقيَّة - مَبنيًّا للمفعول؛ لأنَّ فاعلَ الكتابةِ معلوم، وهو اللّه تعالَى، وبرفعِ اللَّام منْ (قَتْلُهُمُ) على أنَّه نائبُ الفاعل، و(يقولُ) بياءِ الغائب، والضَّميرُ عائدٌ إلى اسْمِ الجَلالةِ في قولِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

بلاغة العطف في جملة قتل الأنبياء:

استُحضِرَ العطفُ زيادةً في مَذَمَّتِهم بذكرِ مساوئ أسلافِهم؛ وأنّ القتلَ خُلُقٌ شَنيعٌ قديمٌ فيهم

وجاءَ عطفُ قولِه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ زيادةً في مَذَمَّتِهم بذكرِ مساوئ أسلافِهم؛ لأنَّ الَّذينَ قَتلُوا الأنبياءَ هم غيرُ الَّذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾؛ بلْ هم من أسلافِهم، فَذُكِرَ هنا ليدُلَّ على أنَّ هذا خُلُقٌ شَنيعٌ قديمٌ فيهم، وهو الاجْتراءُ على اللّهِ ورسولِه[4]، فنبّه على أنه ليس أوّل جريمة ارتكبوها وأنّ من اجترأ على قتل الأنبياء لم يُستبعد منه أمثال هذا القول[5].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612، وبعضه قول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن: 1/110.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/245، وسبط الخيّاط، الاختيار في القراءات العشر: 1/340، وابن خالويه، الحُجّة، ص: 117، وابن خالويه، إعراب القراءات السّبع: 1/124.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(5) الشربيني، السراج المنير: 1/270.

نكتة وصف القتل ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

وصف القتل بأنه غير حقٍّ للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرهم

وقد وصف تعالى قتلَهم للنبيِّين في قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بأنه (غير حقٍّ) مع أنّ هذا النوع من الإجرام لا يمكن أن يكون بحقٍّ مطلقًا؛ وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعِظَم شرِّهم، ومبلغ سوئهم، وأنهم لا يبالون أكان فعلهم في موضعه أم في غير موضعه[1].

بلاغة الحذف والمجاز في جملة قتل الأنبياء:

الحذف على تقدير: آبائهم، والمجاز: لرضاهم بفعل آبائهم

نسبة القول إليهم في قولِه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ إما أنه على حذف مضاف أي وقتلهم آباءَهم الأنبياء، وإما أنه نسب إليهم فعل القتل مجازًا لرضاهم بفعل آبائهم[2].

وجوه المبالغة في مقولة إذاقة عذاب الحريق:

وجه المبالغة التعبيرُ بنون العظمة، وصيغة الأمر، وإضافة العذاب إلى الحريق

وقولُه سُبحانه: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عَطْفُ أَثَرِ الكُتُبِ على الكُتُب؛ أيْ: سَيُجازَوْنَ عن ذلكَ بدونِ صَفْح[3]، ونقولُ لهم: ذُوقُوا العذابَ المُحرقَ كما أَذَقْتُمُ المسلمينَ الغُصَص[4]، وفي نونِ العَظَمةِ مِنْ ﴿وَنَقُولُ﴾، والأمرِ الإلهيِّ ﴿ذُوقُواْ﴾، وإسنادِه إلى عذابِ الحريقِ الَّذي لا يُجازي به إلّا اللّٰه ﷻ مبالغاتٌ تعبّر عن قدرته سبحانه، وعظمته، وعدالته في الجزاء، فضلا عن هول العذاب المُعدِّ.

علّة إيثار لفظ الحريق:

للحريق هولٌ، ورهبةُ مَشْهدٍ يجعلُ مِن وصْف العذاب به مزيدَ ترهيبٍ

والمرادُ بـ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ النَّارُ، والنَّارُ: اسْمٌ جامِعٌ للمُلتهِبَةِ منها وغيرِ المُلتهِبَة، والحريقُ: اسْمٌ للمُلتهِبَةِ منها، وهي بمعنى المُحْرِق، كما يُقالُ: عذابٌ أليمٌ، وضَرْبٌ وَجيعٌ[5]، ومع توجيه دلالة الحريق بمعنى الفاعل (مُحرق) إلا أنّ في مجيئه على هيئته دلالة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1529.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/450.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/484.
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/110، والزّجّاج، معاني القرآن: 1/494.

تهويل لاتؤدّيها لفظ (مُحرق)؛ فللحريق هولٌ، ورهبةُ مَشْهدٍ لا يخفى شدّتهما، وفي وصف العذاب به مزيد ترهيب.

بلاغة المجاز، والاستعارة في التعبير بالذوق:

والذَّوْقُ حقيقتُه إدراكُ الطُّعُوم، واسْتُعمِلَ هنا مَجازًا مُرسَلًا[1] في الإحساسِ بالعذاب؛ فعلاقتُه الإطلاقُ، ونُكْتَتُه أنَّ الذَّوقَ في العُرْفِ يَسْتَتبِعُ تَكرُّرَ ذلكَ الإحساس؛ لأنَّ الذَّوقَ يَتبعُه الأكلُ، وبهذا الاعْتبارِ يَصِحُّ أنْ يكونَ ﴿ذُوقُواْ﴾ استعارةً، وقدْ شاعَ في كلامِ العربِ إطلاقُ الذَّوقِ على الإحساسِ بالخيرِ أو بالشَّرِّ[2].

إنَّ الذَّوقَ في العُرْفِ يَسْتَتبِعُ تَكرُّرَ الإحساس بالعذاب؛ لأنَّ الذَّوقَ يَتْبعُه الأكلُ

الذوق هنا الإحساس بالألم، والأصل في الذّوق أن يكون في أمرٍ مرغوبٍ في ذوقه وطلبه، وهو هنا للألم، فالتّعبير فيه تهكُّمٌ عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21][3].

التعبير بالذوق على طريق المجاز تهكّم عليهم

دلالة الإشارة للبعيد:

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى العذابِ المذكُور وما فيه مِنْ معنَى البُعْدِ؛ للدَّلالة على عِظَمِ شأنِه، وبُعْدِ مَنْزِلتِه في الهَوْلِ والفَظاعة[4].

بيّنتِ الإشارةُ للبعيد هَوْلَ ما سيُعانيه اليهودُ من عذابٍ يومَ القيامةِ

دلالة باءِ السّببيّةِ في الجملة:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ خبرًا لقولِه السَّابق: ﴿ذَٰلِكَ﴾، والباءُ في ﴿بِمَا﴾ للسَّببيَّة؛ أيْ: بسببِ ما اقْترفْتُموه من قتلِ الأنبياءِ والتَّفَوُّهِ بمثْلِ تلكَ العظيمةِ، وغيرِها منَ المعاصي[5].

فائدة ذِكر باءِ السَّببيّة؛ تسبيب مجازاتهم بما اقترفوه من معاصٍ

بديع المجاز في لفظ الأيدي:

وجاءَ التَّعبيرُ عَنِ الأنْفُسِ بالأيْدي في قولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ

(1) تقدّمَ بيانُ المجاز، والمجاز المُرْسَل، والفرقُ بينه وبين الاستعارة في فِقرة الإيضاح اللُّغوي والبلاغي في [آل عمران: 177].

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184 - 185.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

وجه المجاز أنّ عامة الأفعال إنّما تُزاوَلُ بالأيدي؛ فهو من باب التغليب

أَيْدِيكُمْ﴾ مجازًا؛ لِمَا أنَّ عامّةَ أَفَاعيلِها تُزاوَلُ بهنَّ، فَجُعِلَ كُلُّ عملٍ كالواقعِ بالأَيْدي على سبيلِ التَّغليب[1]، قال الراغب: " لمّا كانت اليدُ هي الآلة الصانعة المختصّة بالإنسان، فإنه لما كفى كل واحد من الحيوانات بما احتاج إليه من الأسلحة والملابس، وسخّره لاستعمالها في الدفع عن نفسه، وخلق الإنسان عارياً من كل ذلك، جعل له الرؤية واليد الصانعة، ليعلم برؤيته، وليعمل بيده فوق ما أعطى الحيوانات، فلما كان لليد هذه الخصوصية صارت تُخصُّ بإضافة عمل الجملة إليها"[2].

تخصيص الأيدي دلالة التمكّن، والبطش، والالتصاق

ذهب أبو زهرة إلى أنّ" تخصيص الأيدي بالذكر؛ للدلالة على التمكّن من الفعل وإرادته؛ ولأن أكثر الشرّ يكون ببطش اليد؛ ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته"[3].

نكتة الوصل في جملة الفاصلة:

في العطف تسبيب العذاب بعلّتين: ما قدّمتْه أيديهم، وعدلُ اللهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ على مجرورِ الباء في قولِه: ﴿بِمَا﴾، ووصلها؛ ليكونَ لهذا العذابِ سَبَبان؛ الأوَّلُ: ما قدَّمتْه أيديهم، والثَّاني: عدلُ اللهِ ﷻ، فالأوَّلُ أَوْجَبَ حصولَ العذاب، والثَّاني أَوْجَبَ كونَ هذا العذابِ في مقدارِه المشاهَدِ مِنَ الشِّدَّة، حتَّى لا يَظُنُّوا أنَّ في شِدَّتِه إفراطًا عليهم في التَّعذيب[4].

الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها، وبيانٌ لكمال نزاهته تعالى عن الظلم

بلاغة الاعتراض في جملة نفي الظلم:

يمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، والجملةُ اعتراضٌ تذْييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها؛ أيْ: والأمرُ أنَّه تعالى ليسَ بمُعذِّبٍ لعبيدِه بغير ذنْبٍ من قِبَلِهم، والتَّعبيرُ

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/484.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1019.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/185.

عن ذلك يَنْفي الظُّلم، وفي هذا بيانُ كمالِ نَزاهتِه ﷺ عن ذلك، بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صُدُورُه عنه سُبحانَه مِنَ الظُّلم[1].

بلاغة التوكيد في جملة الفاصلة:

حشد التوكيدات للمبالغة بنفي الظلم عنه تعالى، وثبوت صفة نفيه فيه

تضمّنت جملة الفاصلة حشدًا من التوكيدات بدءًا من المطلع بافتتاحه بـ ﴿وَأَنَّ﴾ المؤكدة، والتعبير بالجملة الاسمية، ثم النفي بليس المقترن خبرها بالباء، والتعبير عن نفي عظيم الظلم بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾.

براعة الجمع بين الجملتين الاسميّة والفعليّة:

ثبوت نفي صفة الظلم فيه سبحانه، مؤدّى فعليّة ليس الدّالة على الاستمرار

التّعبير في عموم جملة الفاصلة بالاسمية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الدّالة على تأكُّد نفي صفة الظلم فيه سبحانه، والتّعبير عن نفي الظلم بالفعليّة الدّال عليها ﴿لَيْسَ﴾ ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ المؤدّية معنى الاستمرار والتّجدد ههنا هو من بديع نظم القرآن، ورائع صوغه.

فائدة التعبير بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾:

دلّت الصيغةُ على المبالغة في تنزيهه عن أدنى ملابسة ظلم

وجاءتْ صيغةُ المبالغةِ في ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ لتأكيدِ معنَى إبرازِ ما ذُكِرَ مِنَ التَّعذيب بغير ذنبٍ في صورة المبالَغة في الظُّلم[2]، فصيغة المبالغة ليست على بابها بأنّه تعالى منزّه عن كثير الظّلم دون قليله والعياذ بالله، بل دلّت على المبالغة في تنزيهه عن أدنى ملابسة ظلم؛ بأن يكون (ظلّام) للنسب، كما في بزاز وعطار أي: لا ينسب إليه ظلم البتة[3]؛ لأنّه" إذا نفى الظلم الكثير اتبع القليل ضرورة، لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظّلم، فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر كان للظلم القليل المنفعة أترك"[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/471.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/270.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/270.

في التعبير بصيغة المبالغة دفعٌ لتوهّم تشبيه إطلاق لفظ الظلّام على المُبالِغِ في التّعذيب في الدّنيا دون تثبّت

وخُصَّ لفظ ظلّام الذي هو للتكثير في نفي الظلم في هذا المكان، ولم يقُلْ على ما قال في قوله: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، المقتضي نفي الظلم قليله وكثيره؛ لأنه لمّا كان في الدّنيا قد يُظن بمن يعذب غيره عذابا شديداً أنه ظلّام قبل أن يُفحص عن حال جُرمه، بيّن تعالى ذنبهم، وأنه إذا عاقبهم عقوبة شديدة فليس بظلّام لهم، وإن كان قد يظن في الدنيا بمن يفعل ذلك أنه ظلّام، تعالى الله عن الظلم[1].

التعبير بصيغة المبالغة ليقابل لفظ العبيد الدّال على الكثرة

وجاء لفظ ظلام الموضوع للتكثير، بسبب المتعلق: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ فلكثرة العبيد ناسب أن يقابل الكثير بالكثير[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نكتُبُ) و(نُثبِتُ):

لفظ (نكتُبُ) يُعبِّرُ السّياق به عنِ الحُجّةِ الثّابتةِ من جهةِ الله على عبده، بتقديم الدّليل بها، على قوله أو فعله، وأمَّا (نُثبِتُ) فهو مِنَ الفعل: ثَبَتَ، والثَّباتُ ضدُّ الزَّوال، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، والإثْباتُ والتَّثبيتُ تارةً يُقالُ بالفِعْل، فيُقالُ لما يَخرجُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجود، نحو: أثبتَ اللهُ كذا، وتارةً لما يَثْبُتُ بالحُكْم، فيُقالُ: أثبتَ الحاكمُ على فُلانٍ كذا، وتارةً لما يكونُ بالقَوْل، سواءٌ أكانَ ذلكَ صِدْقًا منه أمْ كَذِبًا، فيُقالُ: أثبتَ التَّوحيدَ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النّساء: 66]، أي: أشدَّ لتحصيلِ عِلْمِهم، أو أثْبتَ لأعمالهم، واجْتناءِ ثمرةِ أفعالِهم[3]، وبالنَّظرِ إلى ما سَبَقَ، يَتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ أَوْفى مِنَ اسْتعمالِ الفعلِ (سَنُثبتُ)، من

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1019 - 1020.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، والشّربينّي، السّراج المنير: 1/270.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 171.

حيثُ المرادُ مِنَ السِّياقِ القرآنيّ، فإنَّ القضيَّة ليستْ مجرَّدَ إثباتٍ وكَفى، لكنَّها حفظٌ لأعمالِ اليهودِ وأقوالِهم في صحائفِ آثامِهم؛ معَ التَّهديدِ والوَعيدِ بذلك، وهو ما يستوعبه قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، دون سواه.

الذَّوْق والإحْساس:

(الذَّوْق) اختبار طعم الطّعام بطرف اللّسان، ويستعمل مجازًا في غير ذلك، وأمَّا الإحساسُ: فهو الشُّعورُ بالشَّيءِ، وكُلُّ ما شَعَرتَ به فقدْ أَحْسَسْتَه، ومعناه: أَدْرَكتَه بِحسِّك؛ كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]؛ وقولِه سُبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] أي: تعرَّفُوا بإحساسِكُم[1]، والذَّوقُ كما - تقدَّم بيانُه - إدراكُ الطُّعوم، حتَّى أنَّه اسْتُعمِلَ - كما هو هنا - مجازًا مُرسلًا في الإحساسِ بالعذاب، مع الإطلاق الَّذي يُفيد فيما يقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكْثُرُ، فَخُصَّ بالذِّكرِ هنا لِيُعمَّ الأمرَيْن، ثمَّ إنَّ الإحساسَ أَثَرٌ للذَّوق، وليس هو الذَّوق، واستعمالُ الأَصْلِ أصلٌ دونَ استعمالِ فَرْعِه أو أَثَرِه، والقضيَّةُ قضيّةُ تَهكُّم وازْدراءٍ وتبكيتٍ، لأولئكَ اليهودِ الذَّين فَظَّعوا في الفُجورِ والإجرامِ قولًا وعملًا، وكأنَّه يقول: فَلْيَذُوقُوا العذابَ، كما كانوا يذوقونَ الطَّعامَ، وشَتَّانَ بينَ هذا وذاك.

الحَريق والسَّعير والجَحيم والنَّار وجهنَّم:

السَّعيرُ: هو النَّارُ الْمُلتهبَةُ الحَرَّاقةُ، أيْ: تُسمَّى حَريقًا في حالِ إحراقِها؛ ولذلكَ يُقالُ: في العُودِ نارٌ، وفي الحَجَرِ نارٌ، ولا يُقالُ: فيه سَعير، والحَريقُ: النَّارُ الْمُلتهِبَةُ الّتي تلتهم الشّيء وتتلفه، ولهذا يُقالُ: وقَعَ الحريقُ في مَوْضعِ كذا، ولا يُقالُ: وقَعَ السَّعير، وقد قال الشّاعر:

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُو *** دِ، فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا *** إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ[2]

فلا يقتضي قولُكَ: السَّعير، ما يَقْتضيهِ الحَريق، ولهذا يُقال: فلانٌ مُسْعِرُ حَرْبٍ، كأنَّه يُشعِلُها ويُلهِبُها، ولا يُقالُ: مُحرِقُ حَرْب. وأمّا الجَحيمُ: فهي نَارٌ على نَار، وجَمْرٌ على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23.
(2) البيتان للشّاعر العبّاسّي عبد الله بن المعتزّ، ينظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 2/174.

جَمْر لِشدَّة تَوقُّدِها، وجهنَّمُ: تفيدُ بُعْدَ القَعْر[1]. والنَّارُ: اسْمٌ جامِعٌ للمُلْتهِبة منها، وهي بمعنى المُحرِقة، وغيرِ الملْتهِبة[2]. وممَّا سبَق من بيانِ الفُروقِ بين تِلكُمُ الكلمات؛ نجدُ أنَّ استخدامَ سياقِ النَّصّ القُرآنيّ لكلمةِ (الحَريق) في هذه الآية، أَوْلى مِنْ غيرِها، فإنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ المفرداتِ المتَقدِّمةِ تُطلَقُ باعتبارٍ يُغايرُ أُختَها مِنْ وَجْه، ويتَّفِقُ معها من وجهٍ آخَر، حيثُ وردَ سابقًا في التَّعاريف عبارةُ: يُقالُ كذا، ولا يُقالُ كذا، أمَّا كلمةُ (الحريق) فهي مشتركةٌ في الوَصْف معَ جميعِ المفردات، وداخلةٌ في تعريفها.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 278.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/110.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»